تقديم الكتاب

من المسلمات الرئيسة لتطور أي علم من العلوم سواء الإنسانية عامة أم النفسية خاصة؛ هو تحديد المفاهيم المرتبطة به، حيث إنه من البداهة أن أي علم من العلوم ما هو إلا مجموعة من المفاهيم المرتبطة به لتحديد هويته وأهدافه، كما أن العلم لا يمكن تسميته علماً إلا إذا توافرت فيه شروط معينة؛ مثل وجود طائفة من المفاهيم يتخذها العلم موضوعاً للدراسة والبحث، وخضوع هذه المفاهيم لمنهج البحث العلمي، والوصول في ضوء مناهج البحث إلى مجموعة من القوانين العلمية. ومن ثم، يعد المفهوم لبنة أساسية في البناء العلمي للعلم.

ويعد علم النفس أحد العلوم الإنسانية الذي يهدف إلى دراسة السلوك من خلال جملة من المفاهيم؛ التي ابتدعها العلماء؛ والذين اجتهدوا في تحديدها تحديداً دقيقاً، حيث تكون هذه المفاهيم قابلة للقياس؛ الذي يعتبر الركن الثاني بجانب المفهوم لتحديد هوية العلم عامة، وعلم النفس على وجه الخصوص. وإلى جانب هذا، يقوم مفهوم القياس على مسلمة مفادها أنه ما يوجد بمقدار فإنه يمكن قياسه بأداة لها شروطها القياسية المقننة من حيث الصدق والثبات والدرجات المعيارية.

وعلى الرغم من أن العلماء المسلمين هم أول من وضعوا اللبنة الأولى لدراسة السلوك الإنساني، ألا أن هذا العلم لم يتطور تطوراً بالغ الأهمية إلا في كنف العلم الغربي. ومن ثم، يعزى الفضل إلى علماء الغرب في تحديد مفاهيم علم النفس؛ إلى جانب ابتكار أدوات نفسية لقياسها، وتحويله من علم يعتمد على المنهج الإستبطاني فقط لمدة زمنية طويلة إلى علم أستطاع أن يبلغ مكانة كبيرة تحت مظلة المناهج العلمية الأخرى؛ وخاصة المنهج التجريبي.

وفي ضوء ما تقدم، نرى العديد من علماء النفس الذين ينحتون مفاهيماً جديدة في المجال النفسي، فهم بجانب هذا النحت النظري – تحديد المفهوم – يقومون بتصميم أداة قياسية لقياسه. ومن ثم، يمكن الحصول على نتائج يمكن الإعتماد عليها في عمليتي التفسير والتنبؤ.

ونظراً لتطور العلوم النفسية في جامعات أوروبا وأمريكا؛ وحتى نستطيع أن نواكب هذا التقدم في العالم العربي والإسلامي، فكان لزاماً على الباحثين العرب إقتباس نفس المفاهيم النظرية وأدواتها القياسية، والوصول من خلالها إلى نتائج تساعد في التفسير والتنبؤ بالسلوكي سواء أكان سوياً أم مرضياً.

ولا غبار على الباحثين في العالم العربي والإسلامي أن ينهلوا من نبع الحضارة العلمية الغربية التي أسست أركان حضارتها من خلال روافد الحضارة العلمية العربية والإسلامية، ولكن توجد بعض المشكلات المرتبطة بعلم النفس على وجه الخصوص، حيث أنه من المتعارف عليه أن علم النفس علم إنساني في المقام الأول؛ أي أنه علم يهدف إلى تفسير والتنبؤ بالسلوك الإنساني من خلال الواقع الاجتماعي المحيط به، لذا فأن المفهوم يرتبط بالبيئة الاجتماعية. ونظراً لإختلاف البيئات الاجتماعية؛ فأن هذا يؤدي بالضرورة إلى إختلاف المفاهيم على الرغم من وجود بعض التشابهات في المفاهيم التي يتناولها علم النفس في المجتمعات الإنسانية، لذا لابد على الباحثين العرب غربلة هذه المفاهيم وتطويرها وتطويعها بما يتناسب مع البيئة النفسية العربية والاجتماعية والثقافية والدينية.

وعلى الجانب هذا، لابد من تصميم أداة قياسية نفسية ملائمة لقياس هذا المفهوم، ألا أنه من الملاحظ من خلال الإستقصاء العلمي للأدوات النفسية في العالم العربي عامة، والمصري خاصة أن هناك عشوائية في تصميم المقاييس النفسية، بمعنى أنه توجد عشرات من المقاييس لقياس مفهوم واحد، وأن هذه المقاييس لا تستند إلى أرضية نظرية، ولكن يتكون المقياس من جملة من البنود مختارة من هنا أو هناك ولا تجمعها منظومة نظرية مرتبطة بالمفهوم المعني بالقياس.

إضافة إلى هذا، أنه ليس من الحكمة من تعدد المقاييس وكثرتها في قياس مفهوم واحد، ولكن الحكمة في بناء مقياس يقيس جوانب المفهوم المراد قياسه؛ ولا غبار من إدخال بعض التعديلات على هذا المقياس بعد فترات زمنية تواكب تغير الواقع النفسي، بمعنى أنه لابد من الوصول إلى أداة قياسية معيارية يمكن الركون إليها في تفسير السلوك الإنساني.

وعليه، يحاول هذا الكتاب عزيزي القارئ أن يقدم بين يديك مجموعة من المفاهيم النفسية وطرائق قياسها، ومن المحال أن يجمع كتاب واحد كل المفاهيم المرتبطة بعلم النفس وقياسها، لذا يأمل المؤلفان أن تكون هناك مؤلفات أخرى في مجال مفاهيم علم النفس وقياسها في المستقبل القريب، ولعل هذا ما يفيد الباحثين في مجال علم النفس.

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤]

المؤلفان